

أعتقد أن ثمة بعض التناقض: كيف يمكن التوفيق بين مفهوم يرى إلى النص [كذا] في بنيته ومفهوم يقيم النصوص على تمايزها في حقولها الثقافية وعلى مستواها المشترك الذي هو مستواها الإيديولوجي، على هذا المستوى تتعدد المواقع، وتختلف وتتناقض. وليس تعذُّدها هذا وتناقضها سوى حركة الصراع الاجتماعي. من هنا تأتي أهمية مفهوم الحوارية الذي لا يعود لمفهوم البنية معه من أهمية، أو من معنى. ولهذا أريد أن أعرف رأيك فيما أراه من تناقض...؟^(*).

وهذا القسم الذي أكتبه في ضوء رسالتي الجوابية لا اعتبره الآن رداً على الناقد «يمنى العيد» ولكنه موجه بالأساس إلى عموم المهتمين بالنقد الأدبي والنقد الروائي بشكل خاص، فضلاً عن أن اقتراح إخراج هذا النقاش من إطاره الشائني إلى دائرة مفتوحة أوسع، جاء استجابة لرغبة الناقد نفسها، وهي استجابة مصحوبة بقناعتي التامة بوجاهة رأيها حول تعميم النقاش.

ولا أريد أن أعالج في هذه الدراسة النقطة الأولى التي تتعلق بالوصف الأثنوغرافي في الرواية، فربما أتاحت الفرصة لمناقشتها مجدداً في عملٍ آخر⁽⁷⁴⁾ ولكنني أركز على النقطة الثانية المتعلقة بتساؤل الناقد حول إمكانية الجمع بين مفهوم البنية عند «غولدمان» وبين مفهوم الحوارية عند «باختين»؟ وهل يصح إدراج الحوارية الباختيانية ضمن مرحلة الفهم الغولدمانية؟

إن هذا التساؤل يطرح في الواقع مشكلة أساسية متعلقة بإشكالية النقد العربي في علاقته بروافد النقد الغربي، ذلك أن أي ممارسة نقدية جادة - وأقول جادة - في العالم العربي لا بد أن تراعي خصوصيات الكتابة الإبداعية العربية، لذلك يجد الناقد العربي نفسه دوماً أمام قدر واحد، هو تركيب العناصر النقدية الغربية قياساً على مستوى وطبيعة إدراكه للعالم⁽⁷⁵⁾ وقياساً على تصوره لطبيعة الإبداع الأدبي ووظيفته.

وهذا شيء أُلحْتُ عليه الناقد (يمنى العيد) نفسها في غير موضع من كتابها في «معرفة النص»، كما أنها كانت مدفوعة - ربما بإحساس خفي - إلى تطعيم المنهج البنيوي بالبعد السوسولوجي، دون أن تغفل التأكيد على ضرورة مراعاة دلالة الأدب بالنسبة للبنية الثقافية المحيطة⁽⁷⁶⁾.

(*) من رسالة وجهتها إلينا يمى العيد بتاريخ 1984/11/11.

(74) عالجنا هذا الموضوع سلفاً في دراسة مطولة في كتابنا: الرواية المغربية ورؤية الواقع، دار الثقافة البيضاء 1985.

(75) إن نوعية ادراك الناقد العربي للعالم تختلف دون شك عن نوعية ادراك الناقد الغربي، وذلك بسبب اختلاف الوضع الحضاري. ولا تراعي هنا الفروق الحاصلة في الوضعين بين الشرائح الاجتماعية.

(76) يمى العيد: في معرفة النص، دار الأفاق الجديدة 1983، صفحات: 38-40.